الفصل الثالث

مسح دراسي لتاريخ الطب العربي

سوف يتعرف القارئ باختصار على أسماء أهم الأطباء العرب.

ولد علي بن سهل ربان الطبري نحو عام 810 في ميرف لأب عالم مسيحي. أصبح سكرتيراً للأمير مزيَر بن قرين في طابارستان، وهي ولاية فارسية على بحر قزوين. لكنه هرب إلى الري بعد سقوط مزيَر. أتم كتابه **كتاب فردوس الحكمة**، وهو أول موسوعة طبية باللغة العربية عام 840 للميلاد وأهداه للخليفة المتوكل. اعتمد الكتاب أساساً على مصادر يونانية، من كتابات أبقراط وجالينيوس وأرسطو وديوسقوريدس وكتابين آخرين اقتبس منهم علي بتقديم حر لترجمات سريانية. يلاحظ خاصة في كتابات علي دمج الملاحظات المنطقية والسحرية عن الطبيعة، وهو موقف ذهني ميز عدداً من علماء العصور الوسطى. أضاف علي ملحقاً إلى الكتاب وضع فيه شرحاً للطب الهندي، وهذه ظاهرة نادرة في الأدب العربي في القرون الوسطى. أخذ معلوماته من الترجمات الفارسية أو العربية لأعمال كاراكا وسوسروتا وفاغباهتا ومادهافاكارا. وضع علي بهذه الطريقة أساساً لدراسة شاملة لنظامين طبيين مختلفين، لكن الكتّاب الآخرين لم يتابعوا على الطريق نفسها.

قيل: إن الخليفة المأمون كلّف أبا زكريا يوحنا بن ماساويه (عاش 777 - 857) ليوجّه حركة الترجمة، لكنه بحسب علمنا لم يترجم شيئاً هو نفسه. ولأنه كان الطبيب الخاص للخلفاء المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، فقد أمضى كامل حياته تقريباً في بغداد والسامراء. كان حنين بن إسحاق تلميذه مدة من الزمن، وكتب أبو زكريا لحنين كتيباً يتألف من 132 حكمة تماثل كثيراً حكم أبقراط (في كتابه **الحكم** وكتاب عن **الهواء والماء والبلدان**). كتب ابن ماساويه كتاباً كبيراً عن علم الأمراض العام هو **كتاب الكمال والتمام** حفظت منه مقاطع كثيرة جداً. فضلاً عن ذلك كتب رسائل عديدة عن كثير من الموضوعات في علم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض.

حنين بن إسحاق:

كان حنين بن إسحاق العبادي (توفي 873 أو 877) قد عيّن مترجماً للكتب اليونانية. لكنه لم يقتصر على مجرد التلقي، بل كتب هو نفسه عدداً من الرسائل العلمية. اشتهر من كتبه خاصة **كتاب المدخل في الطب** وهو كتيب تقديمي قدّمت فيه المشكلات الأساسية في الطب العام في شكل مبوب، واشتمل على علم الصيدلة والتنظير البولي. لم يبدأ حنين في هذا الكتاب دائماً بأعمال جالينيوس الأصلية (التي اشتملت على متناقضات وأمور مبهمة) بل استعمل بدلاً من ذلك طب الإسكندرية المتأخر باختصاراته التي تقدمت على جالينيوس في تنظيم المادة الطبية وترتيبها. حملت الترجمة اللاتينية لكتابه عنوان **مقدمة في الفن الجالينيوسي الصغير**، لكن العنوان مضلل؛ لأن الأعمال الأصلية لحنين تذهب أكثر من موضوعات كتاب **الفن الصغير**.

ظهر كتاب في طب العيون هو **كتاب المقالات العشر في العين**، الذي كما يدل عليه عنوانه يتألف من عشر مسائل كتبت على مدى ثلاثين عاماً، ثم وضعت في كتاب. وضعت هذه المقالات نقطة البداية لأدب متخصص بطب العيون مهم أنتجه العرب وظهر فيما بعد في نسختين لاتينيتين تحت عنوانين مضللين، هما **كتاب جالينيوس في طب العيون ترجمة ديميترو**، و**كتاب العيون لقسطنطين الإفريقي**[1]. يبدو أيضاً أن رسالة حنين في طب الأسنان، **قول في حفظ الأسنان واستصلاحها**، هو أول مرجع شامل في مجاله التخصصي[2].

نشر حنين كتابه الكبير عن الحمية، **كتاب الأغذية**، في نسخة عربية وأخرى سريانية[3]. جمع فيه كما يقول في مقدمته تعليمات جالينيوس وأبقراط وديسقوريدس وروفوس وفيلوتيموس ويوريفون وديوتشيس ومنيسيثيوس من أثينا ومنيسيثيوس من سيزيكوس وديوكليس وأثينايوس من أتاليا وكسينوكريتس وأنتيللوس. لكنه كان قادراً على الاقتباس من بعض هؤلاء الكتّاب فقط عن طريق جالينيوس وأوريباسيوس. يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء. ويتألف الأول من نطق عام لأسماء الأطعمة، ويناقش في الثاني الأطعمة من البذور والفواكه، وفي الثالث الأطعمة من النباتات والحيوانات.

ولد قسطا بن لوقا عام 820 للميلاد، وكان من المسيحيين الملكيين. ولأنه كان يتقن اليونانية والسريانية والعربية، فقد ترجم كتباً كثيرة جداً من اليونانية من بينها كتب روفوس من إيفيسوس. في آخر عمره، بعد تلقيه دعوة من الأمير سانهيريب انتقل من بغداد إلى أرمينيا وتوفي

فيها عام 912. ألف قسطا، الذي درس الرياضيات والفلسفة خاصة ، عدداً من المؤلفات الطبية المثيرة. كان واضحاً أنه مهتم بمسائل وظائف الأعضاء وعلم الأمراض. فحص في كتابه **كتاب في علل اختلاف الناس في أخلاقهم وسيَرهم وشهواتهم واختياراتهم** العلاقة بين التكوين والصفات وطريقة العيش والعواطف والإحساس الجمالي[4].

أبو بكر الرازي:

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (المسمى باللاتينية رازيس) بالري عام 865. بعد أن كان مديراً للمستشفيات في الري وبغداد مدة من الزمن اتجه إلى السفر ووصل بسفره إلى بلاط أمير كرمان وخراسان أبي صالح منصور بن إسحاق، وأهداه **كتاب المنصوري** الذي أصبح أحد أعظم الكتب الكلاسيكية في الطب العربي. أصبح **الكتاب التاسع** من بين الأجزاء العشرة معروفاً جداً في الغرب. عرض علم الأمراض الخاص في هذا الكتاب بالترتيب المعتاد للأمراض من الرأس إلى القدم. عمل على تطوير هذا الجزء التاسع من الكتاب فيساليوس نفسه.

أما كتاب الحاوي فما هو في الواقع إلاّ مجموعة من المقتطفات عن علم الأمراض والعلاج من كتبة يونانيين وهنود وعرب من كتلة ضخمة من المواد الخام التي استعملها الرازي في كتاباته. كان يضم أحياناً في هذه المادة الطبية ملحوظاته الطبية الخاصة[5]. ربما لم تكن نيته نشر هذه المقتطفات، لكن بعد وفاته جعل ابن العميد، وهو وزير بو وحيد ركن الدولة بعض طلاب الرازي ينشرون هذه الملحوظات والتعليقات في صورة كتاب. وهكذا ولد إلى الوجود كتاب ضخم مؤلف

من اثنين وثلاثين مجلداً بقي تأثيره مستمراً في الأدب الطبي العربي اللاحق[6]. نقله إلى اللاتينية فرج بن سليم وبقي الكتاب مرجعاً تعليمياً في كليات مختلفة.

كان الرازي الذي توفي عام 923 مهماً بصفته طبيباً كأهميته بصفته فيلسوفاً[7] وكيميائياً. سمّاه أوغست مولر «أكثر العباقرة إبداعاً في طب القرون الوسطى» وأشاد فون غرونبوم «بمدى دقة تشخيصه والتفاصيل الرائعة للقصة المرضية التي يأخذها». سوف نظهر لاحقاً أنه أسهم في الطب بوصفه للجدري وللساد العيني. لكن يجب أن نحذر قبل أن نطلق حكماً عاماً من هذا النوع طالما أن جزءاً كبيراً من كتابات الرازي غير متوافرة في كتب مطبوعة. يجب ألّا ننسى أن الرازي قد نصح أيضاً بالعلاج بالسحر الودّي، لذلك لا يمكن أن نصفه بأنه ناقد منطقي بحسب معاييرنا.

جاء علي بن عباس المجوسي من أسرة فارسية زرادشتية من الأهواز؛ وخدم طبيباً لدى عضد الدولة فناء خوسرو (حكم 949-982) وتوفي بين عامي 982 و995 للميلاد. كان له كتاب واحد، لكن يُعد كتابه **كامل الصناعة الطبية** المسمى أيضاً **الكتاب الملكي** أحد أعظم الأعمال الكلاسيكية في الطب الإسلامي، واستطاع الحفاظ على سمعته إلى جانب كتاب القانون لابن سينا على مدى العصور الوسطى وعلى مدة من العصور الحديثة. يتميز الكتاب بإيجاز ووضوح التقديم، لكنه لا يخلو من بعض الجفاء. الكتاب خالٍ تقريباً من أفكار السحر والتنجيم ويمثل الجالينيوسية المنظمة في الطب العربي بأرقى أشكالها. لذلك اعتمدت أولاً في أبحاثي اللاحقة على هذا الكتاب[8].

كان أبو قاسم خلف بن عباس الزهراوي يعمل طبيباً في قرطبة في زمن الخليفة عبدالرحمن الثالث (حكم 912 - 961). اشتهر من كتابه العظيم **كتاب التصريف** في الجزء الثلاثين الذي يبحث في الجراحة خاصة. فبينما كانت الجراحة تعامل في الكتب الطبية العربية معاملة القصص الخرافية، نجد هنا معرفة واسعة وتفاصيل دقيقة. استخدم أبو القاسم الكتاب السادس لبولوس من إيجينا مصدراً أساساً، لكنه أضاف إليه كثيراً من عمله الخاص. يضع على الجراحين أعباء كبيرة عندما يقول:

إليكم السبب في عدم وجود جراحين بارعين في يومنا هذا: فن الطب طويل ومن الضروري على الطالب قبل ممارسته أن يتمرن على التشريح كما وصفه جالينيوس، حتى يعرف معرفة تامة استعمالاته وأشكاله ومزاج الأطراف؛ وكيف تتمفصل مع بعضها وكيف يمكن أن تفصل عن بعضها؛ كما يجب عليه أن يعرف معرفة تامة العظام والأوتار والعضلات وعددها وارتكازاتها؛ ويجب أن يعرف أيضاً الأوعية الدموية من شرايين وأوردة وارتباطاتها[9].

نتيجة لذلك دمجت الجراحة التي كانت متروكة سابقاً للحجامين والحلاقين بفضل أبي القاسم اندماجاً كاملاً في الطب العلمي.

لا تكمن أهمية **كتاب التصريف** فقط في الحصيلة بالتأثير الكبير لنسخته اللاتينية التي كتبها جيرارد من كريمونا على العمل الجراحي لروجر من بارما ولانسفرانتشي وجيليلمو وفابريتسيو دي أكوابندينته، بل أهم ما في الكتاب أنه قد اقتبس كثيراً في كتاب الجراحة الكبرى لغيه دي شولياك المؤلف عام 1363، وبذلك فقد استمر تأثيره حتى القرن

الثامن عشر. توجد أيضاً نسخة تركية لكتاب أبي القاسم في الجراحة مهداة إلى محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية (حكم 1451 - 1481).

ابن سينا:

ولد أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا في أفشانا قرب بخارى عام 980 (أو قبل ذلك بقليل). شملت دراساته متعددة الوجوه القرآن الكريم والقانون والمنطق والغيبيات والرياضيات والفلك والطب. إذا صدقنا سيرة ابن سينا الذاتية التي كتبها، فقد بدأ بممارسة الطب وعمره 16 سنة. استدعي عقب ذلك بقليل لعلاج حاكم بخارى نور بن منصور. بذلك سنحت له الفرصة للتعرف على كتب عدد كبير من المؤلفين في مكتبة الحاكم. انتقل ابن سينا لأسباب سياسية بين عامي 1002 و1005 من بخارى إلى غورغاني؛ وأخيراً استقر بعد عدة رحلات في جورجان. بدأ هناك بكتابة عمله الطبي الأساسي **كتاب القانون**. أصبح بعد ذلك في همدان وزيراً لشمس الدعوة بن طاهر (حكم 997 - 1021). توفي عام 1037 في همدان بسبب مغص معوي[10].

تعود شهرة ابن سينا في الطب إلى **كتاب القانون** الذي بدأ كتابته في جورجان وأتمه في همدان. أراد لاحقاً أن يضم إلى الكتاب تجربته التي حصل عليها في ممارسة الطب، لكن فقدت الأوراق التي كتبها عليها. حتى دون هذه الأوراق فإن كتاب القانون كتاب عظيم يتألف من خمسة مجلدات قسمها إلى موضوعات وموضوعات فرعية وخلاصات وأقسام. الكتاب الأول (**الكليّات**) كتاب عام، يتعامل مع الفيزيولوجيا والأنف والأذن وأعراض الأمراض ومبادئ العلاج. يعرض الكتاب الثاني الأمور

البسيطة من عوالم الطبيعة الثلاثة، حيث شرح بدقة القوة والتأثير والاستعمال. خصص الكتاب الثالث لعلم الأمراض الخاص. صنفت الأمراض كما هو معتاد بترتيب حصولها في الجسم من الرأس حتى القدم. يتعامل الكتاب الرابع مع الأمراض التي تشمل كامل الجسم مثل الحمى والقرحات والكسور والتسممات على سبيل المثال. أخيراً فإن الكتاب الخامس هو كتاب الصيدلة الذي يعلّم خلط الأدوية.

حاز **كتاب القانون** على احترام واسع في كل من الشرق والغرب. يدل على ذلك عدد المخطوطات الهائل المحفوظة حتى يومنا هذا وبالعدد الكبير للتعليقات والتعليقات على التعليقات والخلاصات والتفاسير والتقليد والترجمات. ترجم جيرارد من كريمونا **كتاب القانون** بعد مئة عام من موت ابن سينا في طليلطة إلى اللاتينية. حسّن هذه الترجمة الطبيب والمستشرق العظيم أندريا ألباغو (توفي 1522) الذي شغل سنوات طويلة كرسي قنصل فينيسيا في دمشق[11]. طبع **كتاب القانون** اللاتيني بعد ذلك ستاً وثلاثين مرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لكن مهما كان تأثير هذا الكتاب فإن أهميته تقع حقيقة فقط في التقديم المنظم والشامل لعلم الطب في زمانه. لا يشمل الكتاب خبرة شخصية للكاتب ولا توجد فيه أفكار جديدة. كتب جيوفاني ماناردي (توفي 1536) يقول: «الحقيقة أن ابن سينا قد جمع في كتابه طب الآخرين من نصوص اليونان وغيرهم». سوف تكون المهمة في المستقبل هي كشف مصادر هذا الكتاب الجامع العظيم- وهي مهمة صعبة؛ لأن ابن سينا نادراً ما يذكر المصدر بالاسم؛ لأنه لا يقتبس النص حرفياً بل يغيره ويعدله.

ابن زهر:

ولد أبو مروان عبدالملك بن زهر في سيفيليا عام 1901 أو 1904. خدم المرابطين في البداية وأهدى كتابه الأول **كتاب الاقتصاد** لإبراهيم ابن يوسف بن تاشفين الذي مجده نصيراً للعلم ومحباً للكتب ومطلعاً على أعمال جالينيوس. عندما سجنه علي بن يوسف بن تاشفين قبع بن زهر نحو عشر سنوات في السجن في مراكش. بعد أن سيطر الموحدون على الحكم أصبح وزيراً وطبيباً شخصياً لعبدالمؤمن (حكم 1130 - 1163) وتمكن من قضاء آخر خمس عشرة سنة الأخيرة من عمره في إسبانيا مرة أخرى. كتب هناك كتاب التيسير وهو كتابه الأساسي. بعد إكمال الكتاب بمدة وجيزة توفي ابن زهر في سيفيليا عام 1161 أو 1162. كتاب التيسير كتاب في علم الأمراض مع مجموعة من الوصفات الطبية. يحتوي الكتاب على «الطب الخاص» الذي يقال: إن ابن رشد تممه بكتابة كتابه «الطب العام». ترتكز السمعة التي تمتع بها ابن زهر في أوروبا على كتاب التيسير الذي ترجم إلى العبرية واللاتينية. طبع الكتاب ثماني مرات باللاتينية بين 1490 و 1554.

ابن رشد:

ولد أبو وليد محمد بن أحمد بن رشد في قرطبة عام 1126. كان أساساً رجل قانون وشغل نفسه بالفلسفة، وكان أهم مفسري أرسطو في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. عين مسؤولاً في الدولة في قرطبة ومراكش وتوفي عام 1198 [12]. عمله الطبي الأساسي هو **كتاب الكليات**. كما أسلفنا فإن كتاب «الطب العام» كان يُعد متمماً لكتاب

«الطب الخاص» لابن زهر. تتعامل الأجزاء السبعة للكتاب بالتشريح والحمية وعلم الأمراض وأعراض الأمراض والتغذية والمادة الطبية والصحة والعلاج. كان بتقسيمه هذا للموضوعات يتبع مقالة قصيرة للفارابي التي طالب فيها أن يتقن الأطباء هذه الأقسام السبعة.[13] في الوقت نفسه أوضح ابن رشد أن كتاب «الطب العام» يقع ضمن نطاق عمل الفيلسوف، ولذلك فإن الخلاف بين جالينيوس وأرسطو في المسائل الفيزيولوجية يحسم لمصلحة أرسطو.

موسى بن عبيدالله:

ولد الفيلسوف اليهودي أبو عمران موسى بن عبيد الله بن ميمون في قرطبة 30 آذار عام 1135. عندما أجبره الموحدون على ترك وطنه استوطن في مصر وعمل طبيباً خاصاً لدى ابن صلاح الدين المالك الفضل نور الدين علي. توفي ابن ميمون عام 1204[14]. أشهر أعماله **كتاب الفصول**[15]، وهو مجموعة من 1500 اقتباس من كتابات جالينيوس وهو منظم في خمسة وعشرين فصلاً. كان ابن ميمون يستشهد أحياناً بكتّاب عرب أيضاً، كمحمد بن أحمد التميمي وأبي مروان بن زهر وابن التلميذ وآخرين على سبيل المثال. نقد في الفصل الخامس والعشرين مقاطع من أعمال جالينيوس أشكلت عليه. كتب ابن ميمون أيضاً كتابين في **النظام الصحي**[16] لسيده المصاب بالسوداوية، وحوّل عدداً من كتابات جالينيوس إلى موسوعة. ثم إنه كتب عن السموم وجمع مترادفات من الأدوية.

ولد موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي في بغداد عام 1162. بعد أن درس الفلسفة والدين والفلسفة والكيمياء القديمة سافر

إلى دمشق والقاهرة ومدن أخرى. عاد بعد ذلك إلى الكتّاب القدامى خاصة أرسطو والإسكندر من أفروديسياس. بدأ بتدريس الطب في دمشق عام 1207. وبعد أن قام برحلة إلى الأناضول والحج إلى مكة، توفي في بغداد عام 1231. تظهر سيرة عبداللطيف الذاتية أن الرجل كان ذا شخصية إبداعية ومفكراً مستقل الفكر يسعى بشغف إلى الحقيقة. كان في الوقت نفسه يشن هجوماً شديداً على زملائه وعلى الرموز السابقين كابن سينا وعلم الكيمياء القديمة. سوف نجد ذلك لاحقاً عندما نناقش اكتشاف وحدة الفك السفلي وكتابه عن الداء السكري[17].

ابن النفيس:

كان هناك أستاذ آخر للطب في دمشق هو علاء الدين علي بن أبي حزم القرشي، المشهور بابن النفيس الذي توفي عام 1288. في كتاباته الدينية كتب رسالة **فضل بن ناطق** الجافة نسبياً[18]. إضافة إلى تعليقاته على كتابات أبقراط كتب ابن النفيس خلاصة لكتاب **القانون** لابن سينا، وهو كتاب عملي مشهور جداً وواسع القبول، علق عليه كثيراً فيما بعد. كتب بعد ذلك تعليقاً طويلاً على كتاب **القانون** حاول فيه إثبات نظريته في الدوران الرئوي التي سنبحثها فيما بعد.

ابن بيطار:

ولد ضياء الدين عبدالله بن أحمد بن بيطار في مالقة في أواخر القرن الثاني عشر. سافر إلى الشرق عام 1220 وبعد أن سافر إلى شمال إفريقيا وآسيا الصغرى وسوريا استقر في مصر حيث منحه السلطان الكامل محمد (حكم 1218 - 1238) لقب «رئيس علماء النبات» توفي في

دمشق عام 1248. كتب ابن البيطار عدة كتب في مواد الطب اشتهر منها كثيراً **كتاب جميل مفردات الأدوية والأغذية** وهو كتاب ضخم في الأدوية والأغذية. لكنه مجرد مجموعة من الخلاصات جمع فيه أكثر من مئتي مصدر. على سبيل المثال، كتب فيه كامل نص كتاب ديسقوريدس.

الأسماء المذكورة هنا مجموعة صغيرة منتقاة فقط من عشرات من الأطباء المشهورين أو كتّاب الطب الذين ظهروا في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. سوف يذكر اسم بعض هؤلاء في الفصول الآتية مرتبطاً بأفكار إمراضية معينة كتب عنها هؤلاء الأطباء. كان يصعب ضمن الظروف الموجودة توقع ظهور اكتشافات أو أنظمة تفكير جديدة من أطباء العصور الوسطى إلاّ فيما ندر. ما حصل هو مجرد إعادة إنتاج للتعاليم القديمة، ومعظم الكتب والرسائل هي جمع لمحتويات أصبحت معلوماتها أكثر سطحية مع تقدم الوقت.

بالطبع يجب عدم الحكم على موقف الطب في البلاد الإسلامية فقط على أساس كتابات الأطباء. كان الأطباء موجودين فقط في المدن الكبيرة، ومعظم الأسماء الشهيرة كانت لأطباء عملوا أطباء شخصيين للسلاطين أو كانوا مدرّسين ووصلوا إلى درجة عالية في الثقافة. كان فقراء المدن وسكان القرى محرومين من العناية الطبية، وكان من يقدم العناية الصحية في تلك المناطق إما دجالاً أو طبيباً شديد الجهل. ربما كان الوضع طوال العصور الوسطى مشابهاً للوضع في حلب في القرن الثامن عشر الذي نملك له وصفاً ممتازاً ومفصلاً كتبه ألكسندر روسل (توفي 1768)، الذي عمل طبيباً في معمل إنكليزي في حلب عشرين عاماً[19]. بحسب روسل، لم يكن الطب في يد الأتراك بل كان في يد

النصارى واليهود. للحصول على حق الممارسة كان يجب الحصول على ترخيص من الحاكم باشا، لكن ذلك كان ممكناً مقابل الرشوة. لم يكن الطالب يدرب تدريباً نظامياً لا على طرف السرير ولا عبر التدريس. كان الأطباء أنفسهم يحضّرون الدواء. أدى التشخيص عن طريق جس النبض دوراً كبيراً؛ وأهملت الجراحة كثيراً. «أتت معلوماتهم التشريحية عن طريق القراءة لا عن طريق التشريح. وبقي كل من التشريح والفزيولوجيا تماماً في الوضع الذي تركه جالينيوس».

يظهر تدهور الطب العربي أيضاً في حقيقة أن أشخاصاً مهمين كانوا يفتقرون إلى وجود طبيب إلى جانبهم. في عام 1471 احتل الملك البرتغالي ألفونسو الخامس أرزيلا، وهي مدينة ساحلية صغيرة بين تنجير ولاراش، وكانت الحامية هناك مزودة دائماً بجرّاح عسكري أو اثنين. عندما مرض مولاي إبراهيم وزير السلطان أحمد بن محمد الوطاسي عام 1530 في شوين، استدعى الطبيب دوريت رودريجس من أرزيلا؛ وفي عام 1532 عندما مرضت أخته لالا عائشة زوجة السلطان طلب أيضاً زيارة من الطبيب البرتغالي[20]. يجب ألّا نفترض بالطبع أن الطب الأوروبي في ذلك الوقت كان أفضل من الطب العربي. كان الطب العربي لا يزال مهيمناً في أوروبا، كما نرى من العدد الهائل في ذلك الوقت من نسخ كتب ابن سينا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. ما تظهره الحادثة هو أن سلطان المغرب ذلك الوقت كان يفتقر إلى طبيب مماثل في بلاطه؛ وهذا حادث متكرر ويظهر التحول الذي كان يحصل في العلم في الشرق والغرب.

ظهر تأثير أوروبا في الطب الإسلامي واضحاً في القرن السابع عشر عندما كتب صالح بن ناصر الله بن سلوم طبيب السلطان العثماني محمد الرابع كتابه **غاية الإتقان في تطهير بدن الإنسان**. لا نرى في هذا الكتاب أمراضاً «جديدة» لم تكن معروفة في العصور الماضية مثل الشحوب اليخضوري وداء الزهري والنقرس والثنية البولونية فحسب، بل نرى ظهور نظام جديد كلياً هو «الطب الكيميائي» لباراسيلسوس. بنى ابن سلوم، الذي ولد في حلب وربما سنحت له الفرصة لتعلم اللاتينية من الأطباء الأوروبيين، كتابه على كتاب **التأكيد** للباراسيلسوس، مع أنه قد يكون عرف الكتاب معرفة غير مباشرة من كتابات تلميذ باراسيلسوس أزولد كروليوس. كتب ابن سلوم هنا عن علم الأمراض، لا من نظرية الأخلاط لجالينيوس، بل من المواد الثلاثة الأساسية: الملح والفضة السريعة والكبريت وعلّم المعالجة باستعمال حجر الفلاسفة الذي يُعد دواءً شاملاً.

عندما انتشر الطاعون بعد مئة عام في إسطنبول عام 1767 وكان الطب التقليدي الإسلامي عاجزاً تجاهه، طلب السلطان مصطفى الثالث بحثاً عن شفاء فاعل، من المترجمين الأتراك وترجمة كتاب هيرمان بويرهاف **المؤسسات الطبية** (الذي طبع أول مرة في ليدن عام 1707) **ملخص في تشخيص وعلاج الأمراض** (ليدن 1709). قام بالترجمة طبيب البلاط صبحي زاده عبد العزيز الذي استعان بالمترجم الإمبراطوري النمساوي توماس فون هيربرت وأنهى الترجمة عام 1768. لم تكن الترجمة حرفية بل كانت مكيّفة؛ لأن صبحي زادة كان يحاول عن طريق الشرح والإضافات أن يوافق بين الطب الحديث مع

وجهات النظر التقليدية[21]. لكن ترجمات بويرهاف لم تلقَ رواجاً كبيراً وبقيت دون تأثير. لكن يتضح من ترجمات باراسيلسوس وبويرهاف أن التقدم في الطب لم يعد منحصراً في الشرق. لكن التغير الحقيقي لم يحصل إلّا في القرن التاسع عشر.

أنتوني بارثيليمي

قدم أنتوني بارثيليمي كلوت، الذي ولد في غرينوبل عام 1793، الكثير لتقديم الطب العلمي إلى مصر. أصبح عام 1820 طبيباً في مونبيلييه وأصبح عام 1823 جراحاً. عينه محمد علي رئيس الأطباء في الجيش المصري عام 1825. بحلول عام 1828 كان قد أسس كلية للطب في أبو زعبل قرب القاهرة التي توسعت فيما بعد لتشمل أقساماً للصيدلة والطب البيطري وجناحاً للقبالة؛ نقلت الكلية إلى القاهرة عام 1837. درّس أطباء فرنسيون آخرون في الكلية إضافة إلى أطباء من ألمانيا وإيطاليا. أجرى كلوت عمليات جراحية مهمة كتب عنها في عدد كبير من المقالات، لكنه وجد صعوبة في الحصول على إذن بتشريح الجثث. عندما حصل الطاعون الكبير عام 1835 اتبع سياسة الوقاية من العدوى مزدرياً قوانين الحجر الصحي[22].

بدأ تعليم المواد الطبية العملية في إيران فقط عام 1850 عندما أنشئت دار الفنون في طهران، وهي كلية طبية وعسكرية تدرب الضباط والأطباء، وكان تدريب الأطباء لتحضيرهم للخدمة المدنية. أسس الكلية رئيس الوزراء ميراز تقي خان، الذي أدرك الحاجة إلى هذه الخطوة في أثناء زياراته الدبلوماسية إلى أوروبا. كان المدرّسون في دار الفنون من النمسا وإيطاليا، وكانت الفرنسية هي لغة التعليم[23].

لكن منذ ذلك الوقت حتى العصر الحالي، يتميز الوضع في البلدان الإسلامية بالوجود المترافق للطب العربي التقليدي والطب الأوروبي الحديث. عندما انتشرت الكوليرا في مصر في صيف 1883، وجاءت البعثة الفرنسية الألمانية برئاسة لويس باستور وروبرت كوخ إلى مصر لدراسة الجائحة، كان جميع كبار الأطباء تقريباً في القاهرة والإسكندرية أوروبيين[24]. لكن في الوقت نفسه، كان الطب العربي يثبت وجوده كاملاً. لم تكن النسخة البولاقية لكتب ابن البيطار (1874) وابن سينا والمجوسي (كلاهما 1877) تقرأ باهتمام تاريخي بل لأنها كانت تحتوي على طب عملي حي.

يمارس الطب اليوناني، أي الطب اليوناني من مصادر عربية وفارسية، في الهند حتى يومنا هذا إلى جانب الطب الأيورفيدي والطب الأوروبي. لم ينقطع هنا التقليد خاصة الذي نشره البهمن في ديكان وسلاطين المغول في هندوستان (1525 - 1857). كان الكتاب الأساسي للطب اليوناني دائماً كتاب **القانون** لابن سينا مع تعليقات وشروح مثل **المجيز** لابن النفيس **والقانونجا** لمحمود بن عمر الجغميني (توفي بعد 1221)؛ كان لهذه الكتب أهمية كبيرة ونشرت بالطباعة الحجرية في القرن التاسع عشر. هوجم هذا الطب التقليدي واعترض عليه ممارسون من داخله. كتب حكيم أفضل علي من فوزآباد عام 1878 كتاباً بعنوان **جامع الشفايا** شرح فيه أن الطب اليوناني يعتمد على افتراضات خاطئة. مع ذلك، استطاع مسيح الملك حيكم محمد أجمل خان تأسيس كلية الطب اليوناني والأيورفيدي في دلهي بدعم من الحكومة الهندية.[25]

تأثير الطب العربي في الغرب

عندما نجري مسحاً لتاريخ الطب العربي، مهما كان وجيزاً، فإننا يجب ألّا نقلل من الدور الذي أداه الطب العربي في العصور الوسطى اللاتينية. لقد ذكرنا مراراً من آن إلى آخر أن عدداً من كتابات حنين ابن إسحاق والرازي والزهراوي وابن سينا قد ترجمت إلى اللاتينية. كيف حصل هذا التلاقي بين الطبين العربي والغربي؟

كانت كتابات القدماء حتى القرن العاشر قد طويت في زوايا النسيان في الغرب، ولم يبقَ سوى قليل من ترجمات العصور الوسطى اللاتينية لبعض أعمال جالينيوس في أماكن قليلة فقط. اعتمد الناس فقط على ما قيل: إنه موسوعة عامة مثل موسوعة إيزيدور من سيفيليا عن التشريح البشري. أكثر من هذا، كانت المعايير العلمية في كلية الطب القديمة في ساليرنو قد انهارت إلى الحضيض.

لكن ذلك تبدل كثيراً في منتصف القرن الحادي عشر عند ظهور قسطنطين الإفريقي. لا نعرف كثيراً عن حياة هذا الرجل. ما تذكره القصص هي حكايا أسطورية لا يمكن الاعتماد عليها تاريخياً. لا بد أن قسطنطين قد ولد في بداية القرن الحادي عشر في تونس. يقال: إنه ربما ذهب إلى إيطاليا تاجراً. بعد أن رأى الوضع المزري للطب هناك عاد إلى تونس لدراسة الطب ثلاث سنوات ثم عاد إلى إيطاليا. تحول إلى المسيحية وأصبح راهباً في صومعة مونت كاسينو حيث أمضى بقية حياته يترجم الكتب العربية التي جلبها معه. توفي في الصومعة عام 1087.

ترجم قسطنطين أهم كتب الطب العربية التي ظهرت في منتصف القرن الحادي عشر. نشرت الكتب باسمه كما لو كان هو الكاتب لا الكاتب العربي الأصلي. كتاب قسطنطين في السوداوية هو كتاب مقالة في المالانخولية لإسحاق بن عمران، وكتاب النسيان هو كتاب رسالة في النسيان وعلاجه لابن الجزار. ترجم قسطنطين أيضاً عملاً آخر هو كتاب زاد المسافر في الطب العام. كذلك أعاد كتابة الكتاب الملكي للمجوسي. كذلك كان هناك عدة كتابات لإسحاق بن سليمان الإسرائيلي. يصعب فهم ترجمات قسطنطين؛ لأن كلماتها منمقة ولأنه حافظ على المصطلحات العربية. مع ذلك فالشعور العام أن تأثيره كبير جداً إلى حد أن بطرس دياقونس سماه «أستاذ في علوم الشرق والغرب، الشعاع الأبقراطي الجديد». حتى لو شاطر المرء هذا المديح فلا شك أن قسطنطين أعاد الحيوية إلى مدرسة ساليرنو، وأن الطب الأوروبي عامة قد تأثر وغني به كثيراً.

عادت طليطلة للنصارى عام 1085 لكن بقي فيها عدد كبير من العرب واليهود المتكلمين بالعربية تحت الحكم المسيحي. في 1125 أصبح ريموند من سوفيتات عام 1125 أسقف قرطبة. أدرك أن قرطبة توفر فرصة لترجمة الأعمال العلمية العربية إلى اللاتينية، وسرعان ما أصبحت المدينة مركزاً نقل منه تعليم العربية إلى الغرب. كان دومينسقس غونديسالينوس وجوانز هيسبالينسيس رائدي الترجمة في حقول الفلسفة العربية والعلوم الدقيقة. انضم إليهما عام 1150 جيرارد الذي ولد في كريمونا في لومباردي عام 1114، لكنه جاء الآن إلى قرطبة

لدراسة النصوص العربية خاصة ألماغيست لبتوليمي في علم التنجيم. لم يترجم بتوليمي الألماغيست فحسب، لكنه ترجم أيضاً الموسوعات الكبيرة العظيمة للرازي والزهراوي وابن سينا. ينسب إليه نحو مئة عمل، لكن لا يمكن أن تكون كلها له. لا يختلف ما حصل مع جيرارد عما حصل مع حنين والمترجمين المشاهير الذين نسبت إليهم جميع الأعمال التي لا يعرف من ترجمها.

يجب ذكر اسم آخر: ستيفن من بيسا. درس في ساليرنو وبعد مدة قصيرة في صقلية ذهب إلى سوريا عام 1127 وكتب هناك ترجمة جديدة **لكتاب الملكي** للمجوسي. هذه الترجمة معروفة أكثر من ترجمة قسطنطين[26].

وضعت هذه الترجمات التي تمت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر أسس «تعريب» الطب في الغرب، واستمرت هذه النزعة مدة قرون، ولم يتغير ذلك إلّا في العصور الحديثة بعد جدل طويل.